رسائل دخان

لا دخان بلا نار

قصة قصيرة

بقلم

رفيق إيونان

افتتاحية

لم يصدق أنه حانت الفرصة أخيراً للتعارف الرسمي. أول ما خطر في باله إنها لا يمكن أن تكون الصدفة البحتة، فلقد سمع عنها الكثير، وترسخ في قلبه أنها ولابد تدرك حقيقة وجوده في نفس كونها. على استحياء بادرها التحية وهي ردت بابتسامة دافئة أذابت جليد شتاءه. هل كانت ابتسامتها وليدة عاداتها الكريمة وحصيلة تربيتها الأصيلة، أم أنها صدى لأشواقٍ دفينة، لتعارف تأخر شهور وسنين؟!

في ذلكَ الصباح المنتظر كانت رياح الربيع اللطيفة لازالت تحمل انتعاش المساء السابق، وكأنها تعتذر مسبقاً عن حر نهارٍ قاسٍ سيهجم كزائر من المستقبل؛ صهد أغسطس الجاف والخانق. كان ميعاد التجمع الثامنة والنصف صباحاً استعداداً للتوجه إلى مستشفى الأطفال. لم يعلم كيف يمكن أن يشارك بفاعلية، خاصة أن خلفيته المهنية بعيدة جداً عن المجال الطبي ولا توقع أن تبتسم له الحياة ويقابلها رغم أنه كان يدرك أنها تعمل في المجال الطبي وتجيد التعامل مع الأطفال. اقتربتا منه هي وصديقتهما المشتركة فوقف قلبه عن الخفقان للحظة أو اثنتين عندما سمع اسمها وربط هذا الوجه الملائكي بالاسم الذي سمع عنه سنيناً، فخرجت أول كلمة من جوفه مخنوقة كمن جرى أميالاً. حاول تدارك الموقف، فسارع بكلمات الترحيب والتشجيع لروحها الطيبة وتخصيصها وقت للعمل التطوعي. ساد الصمت بين ثلاثتهم، ولكنها كانت بداية روايات وأشعار داخله. حاول أن يكتم الكل في قلبه، فهذا اليوم لم يكن له ولا لمشاعره، بل ليخرج عن ذاته، ليكتنف الآخر بالحب. واليوم هذا الآخر لم يكن حبيبته.

يا حمامتي، اختلجت فيّا المشاعر، لكنه ليس بعد يومنا. فانتظريني حبيبتي، ففؤادي يتحرّق لينشد فيكي أشعاراً.

خاتمة

يبدوا أن كل الرسائل السابقة لم تصلها، تأصلت هذه الفكرة في وجدانه. حاول على مدار أسبوع أن يجد طريقة مضمونة لتوصيل رسالته الأخيرة كانت مقتضبة ولكنها مركزة. عبر فيها عن كل ما في قلبه، في ثلاث كلمات أو أربعة. إنها لا تحتمل التأويل أو التفسير الخاطئ، وأخيراً هي فاصلة حاكمة تطلب رداً قاطعاً، نعم أو لا. تردد كثيراً في كتابتها وبحثه عن من يرسلها بيده. فإن كانت إجابتها بنعم فهذا فقط يعني البداية لرحلة طويلة من البحث والتعلم، مواجهة الأخطار وخوض مغامرات، تحقيق بطولات وامتحان الرباط. أما "لا" فلم يكن لديه قوة لتصور معناها، لكنه أدرك أنها تحوي في طياتها القطع والحرمان، ومحاولات للصفح والغفران. "لا" ستضع علامة استفهام كبيرة على كل مشاعره والحريق في داخله!

هبت صديقتهما المشتركة لنجدته، فبذكاء اجتماعي معهود في الفتيات قرأت مشاعره وأشواقه دون أن تطلع على أي من رسائله. تأكد أن الأقدار ستجمعه بمحبوته، فصديقتهما المشتركة ختمت على أشواقه ووافقت أن تسلم رسالته الأخيرة بيدها في ذلك المساء. مرت الساعات عليه كشهور وسنين، وعقله يتصارع مع الإجابتين والسيناريوهات المختلفة، فتارة يتخيل كيف سيقف بجانبها في كل أسفار الحياة، وتارة يندب قدره الذي أوقعه في عشقها.

كان المساء لطيف بنسمة عليلة تمحي آثار نهار حارق لم تجاري حرارته النار المشتعلة بداخله. وقف من بعيد يتطلع صديقتهما المشتركة وهي تناولها مظروفه، أبيض صغير مكتوبٌ عليه اسمها والمُرسِل اسمه. وقف يراقبها وهي تطلع في صديقتهما المشتركة والمظروف الذي بين يديها. انقبض قلبه عندما رفعت عينيها، حتماً لقد قرأت اسمه، حتماً فطنت لمحتوى الرسالة. ابتدأت ابتسامة دافئة أصيلة تعلوا وجهها. عينيها تحمل بريق يعكس الحريق داخل كيانه. أدار وجهه للحظة، خاف أن يجري نحوها ويحتضنها بين ذراعيه. يجب أن أنتظر ردها الرسمي، قالها في نفسه وهو يحاول أن يضبط أنفاسه كما لو كان الأوكسجين الزائد نتيجة شهقاته المتقطعة ستحول النار داخله أتوناً.

ما أن هدأت أنفاسه وتوقف قلبه عن القفز داخل صدره، استدار وأخذ خطوات ثابتة نحوها، لكنه سريعاً أدرك أنها رحلت.

خرج وراءها من بعيد وأخيراً أدركها على بعد شارعين. رآها من بعيد تمسك بورقة بيضاء وتلقيها وسط كومة من القمامة أشعل سكان المنطقة فيها النار لعلهم يتخلصون من مهملاتهم. ما أن احتضنت النار تلك الورقة حتى أخرجت دخاناً أبيضاً يختلف عن السخام الخارج من القمامة.

ملحق ١: ادراكات

عندها أدرك أمرين، إن رسالته الأخيرة لم تُفتح. وأن هناك إجابة ثالثة لم يستطع أن يتخيلها. وهذه الإجابة باتت واقعه.

يا حمامتي، يا كاملتي، طيري وارفعي في العلا الجناح. ربما لم تكوني أبداً لي، وحتى لو كنتي، فلكي الاختيار.

ملحق ٢: فلاش باك

كان مساءاً والظلام حالك. طلبتني صديقتنا المشتركة في خدمة بسيطة، تريد توصيلة. استعرت سيارة وذهبت في الميعاد المتفق عليه. لم تتأخر كثيراً صديقتنا المشتركة، وما ان ركبت ورحبت بي بروحها البشوشة، حتى سمعت باب السيارة يُفتح، وصديقتنا تستأذني لكي تأتي معنا. أول مرة أسمع اسمك، أثرتي اهتمامي. حاولت بشتى الطرق أن أخطف لمحة عن وجهك لكن الظلام الملعون حال دون أن أروي فضولي. طوال الطريق ولا عمود إنارة واحد يتسلل بشعاعه لينير وجهك ولو لبرهة، فتكون تلك اللمحة أثمن من أي تعويض عن الشهامة والمعروف.
سريعاً وصلنا لوجهتكما، وكلي أمل أن أفوز بلمحة من وجهك الملائكي عندما تغادرين السيارة. لكن السيارة الملعونة ذات السقف القصير حالت دون أن أروي فضولي. سرتما مسافة ثم توقفتم. نسى قلبي أن يخفق مرة واثنتين. آه لو تسديري لبرهة. حتى من تلك المسافة تبقى لمحة من وجهك أثمن من أي تعويض.
استكملتِ المسير في هدوء دون أن تلتفتي للمهرجان الدائر داخلي. أصبّر نفسي، ربما لم يكن في حساب الأقدار أن نتعارف، ربما هذا اللقاء الوجيز اختلسناه من الحياة الفوضوية. آه لو فقط نتعرف رسمياً. آه لو فقط تريني وجهك.

رسالة من أنا المستقبل إلى أنا الماضي، ستمر السنين وستنال اللقاء. لكن عليك أن تتحمل الثمن. بسمع الأذن ستسمع عنها لكن أبداً لن ترى قلبها عيناك.

ملحق ٣: صديقي الناقد

أعرفه منذ أولى صفوف الإعدادية، كبرنا معاً كأفضل الأصدقاء. رغم نواياه الصادقة إلا أنه مخادع في الكثير من الأحيان. مع ذلك عليّ أن أشيد بقدرته الخارقة على طرح الأسئلة الصحيحة التي تكشف الدوافع الدفينة. أمام أسئلته أمتحن نفسي وأدرك أبعاد ما لا أعرفه عني.
عندما علم برسائلي ومحاولاتي، بادرني بالسؤال البديهي: لماذا لم تكلمها هاتفياً؟ يبدوا ذلك أقل عناءاً من كل تلك الرسائل والمناورات. كما أنك قلت لي منذ زمن أنك استطعت الوصول لرقم هاتفها!
أجبته، صحيح، كان معي. كنت أحاول أن أحافظ على مكالماتنا رسمية، ربما خفت أن يتلجلج صوتي أو تتجمد احبالي الصوتية في جوفي. لطالما كنت أكثر شجاعة في مواجهة قلمي. بعد رسالتي الثالثة أو الرابعة كنت قد بدأت أفقد صبري وتسلل اليأس إلى قلبي. وفي لحظة شجاعة حمقاء قمت بمحو رقمها من هاتفي خوفاً من أن يبدروا مني تصرف أهوج مجنون دون أن تمنحني موافقتها.
لم يقتنع كثيراً بإجابتي لكنه سألني، لماذا لم تصف قط ملامحها، عينيها، شفتيها، شعرها أو خديها؟ لماذا تطالبها أن تشتعل بنارك دون أن تريها قلبك؟ لماذا تريد أن تكون أنت بطل قصتها؟
لم أعرف كيف أرد على كل هذه التساؤلات المنطقية، لكني تيقنت من إجابة واحدة.

لقد كانت هي بطلة قصتي، وربما هذا يكفيني يوماً ما!